

الفصل الثامن عشر

الملحدون

١٧٣٠ - ١٧٥١

١ - النشوة الفلسفية

لنبداً بتحديد مصطلحاتنا . سوف نعني بلفظة فيلسوف . كل إنسان يحاول أن يصل إلى آراء مسببة مقنعة عقلانية في أى موضوع مهما يكن ، إذا نظر إليه في أبعاده العريضة . وفي تحديد أكثر ، سنطلق هذا المصطلح في الفصول التالية على أولئك الذى يسعون إلى نظرة عقلانية إلى أصل الكون وطبيعته ومغزاه ودلالته ومصيره ، والحياة أو الإنسان . ويجدر ألا نفهم الفلسفة على أنها ضد الدين أو أنها تتعارض معه ، وينبغي أن نفتح في النظرة الواسعة للحياة البشرية مجالاً للدين . ولكن لما كان كثير من فلاسفة فرنسا في القرن الثامن عشر معادين للمسيحية كما عرفوها ، فإن لفظة الفيلسوف اتخذت مفهوماً معادياً للمسيحية^(*) . وفي استعمالنا لهذا المصطلح الفرنسى فإنه سيتضمن هذا المفهوم عادة . وسينطلق على لامترى وفولتير وديدرو ودالمبيرث وجريم وهلفشيوس ودى هولباخ فلاسفة ، ولكننا لن نعدروسو فليسوفا بهذا المعنى - على الرغم من أنه يجدر بنا أن نسميه فيلسوفاً ، لأنه زودنا بحجة عقلانية دفاعاً عن الوجدان والإيمان . كما ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن الفيلسوف قد يعارض الديانات القائمة من حوله ، ومع ذلك ، مثل فولتير ،

(*) ذكر جويوم فرنسوا برتويه ، المحرر اليسوعى اللامع للبحورنال دى تريفو ، فى عدد يولية ١٧٥٩ : « جرت العادة على أن نطلق لفظة فلاسفة على أولئك الذين يهاجمون العقيدة الدينية الموحى بها ، ويطلقون لفظة مضطهد على من يناضلون دفاعاً عنها » (١)

يتمسك إلى النهاية بالإيمان بالله . إن الجدل الذي هاج مشاعر الطبقات المفكرة في نصف القرن الذي سبق الثورة الفرنسية لم يكن مجرد صراع بين الدين والفلسفة ، بل كان بالدرجة الأولى بين الفلاسفة والمذهب الكاثوليكي المسيحي كما وجد في فرنسا آنذاك ، إنه الغيظ المكظوم في قلوب الفرنسيين لقرون طويلة من جراء ما لطخت به الديانة سجّلها من الوقوف في وجه التقدم والمعرفة والاضطهادات والمذابح . وبلغ رد الفعل أقصى مداه ، ولكن كذلك كان الاسفاف في مذبحه سانت برثلميو (١٥٧٢) ومقتل هنري الرابع (١٦١٠) واضطهاد الهيجونوت بعد الغاء مرسوم نانت (١٦٨٥) .

ولم يكن ثمة مثل هذا العدد الكبير من الفلاسفة قط من قبل ، وألمع هلفشيوس إلى « تذوق عصرنا للفلسفة وحبها لها »^(٢) وكتب دالمبير :

أطلق قرننا على نفسه قرن الفلسفة بغير منازع . فمن أصول العلوم الدنيوية الدنسة إلى أسس الوحي ، ومن الميتافيزيقا إلى مسائل الذوق ، ومن الموسيقى إلى الأخلاق ، ومن حقوق الأمراء والملوك إلى حقوق الشعوب . كل شيء كان موضع دراسة وتحليل ومثار نقاش وخلاف . وليس فينا من ينكر أن الفلسفة أحرزت بيننا تقدما . إن العلوم الطبيعية تقدم لنا في كل يوم ذخرا جديدا ... واتخذت كل ميادين المعرفة تقريبا أشكالا جديدة^(٣) .

وكان الفلاسفة الفرنسيون نتاجا جديدا . فكانوا قبل كل شيء واضحين ولم يكونوا جماعة منعزلة عن العالم تكسوهم المهابة والقداسة ، يتحدثون إلى أنفسهم أو إلى نظرائهم أحاديث غامضة لا يفهمها إلا فئة معينة من الناس . وكانوا أدباء عرفوا كيف تتألق الأفكار والآراء في الألفاظ . وولوا ظهورهم نحو الميتافيزيقا باعتبارها ضالة ميثوسا منها ، ونحو طرائق الفلسفة باعتبارها غرورا كاذبا عريضا . ولم يكتبوا أبحاثا مطولة معقدة جهدوا فيها في استنباط العالم من فكرة واحدة ، ولكنهم كتبوا نسبيا موضوعات قصيرة ، ومحاورات مسلية وقصصاً متبلة أحيانا ببعض الفحش ، وهجاء قتالا من فرط السخرية ، أو حكمة معبرة بطريقة بارعة توهم بالتناقض في سطر يحطم تحطيا . وساق هؤلاء الفلاسفة حديثهم متناغما مع رجال الصالونات وسيداتها ، وفي كثير من الأحوال وجهوا كتبهم ومؤلفاتهم إلى شهيرات النساء ، وكان لزاما أن

تكون مثل هذه الكتب واضحة جلية يسهل إدراك مراميها ، وقد تضيئ على الإلحاد سحرا وفتنة . ومن ثم أصبحت الفلسفة قوة إجتماعية إنتقلت من المدارس إلى المجتمع والحكومة . وأسهمت في الصراع بين الدول ، وكانت جزءاً من الأنباء . ولما كانت كل أوروبا المتعلمة تتطالع إلى فرنسا لمعرفة آخر النظريات والآراء ، فان مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين وصلت إلى إنجلترا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال وألمانيا والسويد وروسيا ، وأصبحت أحداثاً في دنيا أوروبا . وفاخر فردريك الأكبر وكترين قيصرية روسيا بأن يكونا من بين الفلاسفة ، وربما لم يقلقهما تنبؤ الطبقة المحافظة الفرنسية بأن المفكرين الأحرار الفرنسيين كانوا يقوضون أساس أخلاق فرنسا ووحدتها وسلطانها وقوتها .

وكان لجوتنبرج أثره البارز : فان الطباعة عملت على نشر العلوم والتاريخ ونقد الأسفار المقدسة وروائع الوثنيين ، وأصبح الفلاسفة الآن أقدر على التحدث إلى جماهير أكبر عدداً وأكثر استعداداً من ذي قبل ، ولم يستنكفوا أن يهبطوا من أبراجهم العاجية ليعملوا على تبسيط المعرفة . ولم يكن هذا لأنهم وثقوا كثيراً في « الرجل العادي » كما عرفوه في ذلك العصر ، ولكنهم وثقوا في أن نشر « الحقيقة » قد يعمل على تحسين سلوك البشر وتوفير مزيد من السعادة لهم . واعتبر دامير أن « فن تعليم الإنسان وتنويره أنبل مهمة وهبة في تناول البشر »^(٤) ، وأصبح « التجاسر على المعرفة » شعاراً الاستنارة الذي حققه عصر العقل وفاز به .

ذلك أن الإيمان بالعقل الذي آذن بانبلاج فجره فرنسيس بيكون قبل ذلك بقرن من الزمان أصبح أساس الفكر المتحرر وأداته - أي أن الفكر تحرر بهذا من أساطير الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة وبرز العقل متألقاً في عظمة وحى جديد ، وطالب بالسيادة والسيطرة في كل مجال وميدان ، وعرض اصلاح التعليم والدين والأخلاق والأدب والاقتصاد والحكومة بمفهومه المشرق . وأقر الفلاسفة بضعف العقل ، مثله في ذلك مثل أي شيء بشري ، وأدركوا أنه من الميسور تضليله بأي منطق فاسد أو تفسير خاطئ للخبرة . وما كان لهم أن ينتظروا شوبنهاور لينبئهم بأن العقل عادة خادم للرغبة وأداة للارادة . إن هيوم الذي هيمن على عصر العقل هذا في بريطانيا كان

أقوى ناقد واجهه العقل ، وربما باستثناء كانت . واعترف فولتير من آن
لآخر بحدود العقل . واتفق ديدرو مع روسو في أن الوجدان أساسى أكثر
من العقل . واعترف كل فلاسفة القرن الثامن عشر تقريبا بأن غالبية الناس
حتى فى أعظم الأمم حضارة ومدنية مرهقون بالحاجيات الإقتصادية والكدح
فى سبيل العيش إلى درجة لا يجدون معها فسحة من الوقت لتنمية العقل ،
وأن جماهير البشر تتحرك وتتأثر بالأهواء والعواطف والحزازات أكثر
من تأثرها بالعقل ، ومع هذا ظل الأمل معقودا على إنتشار العقل وإمكان
تجريبه من الأنانية الضيقة والتعاليم المغرضة .

وهكذا برغم فترات التشاوم التى مر بها الفلاسفة فقد سادت بينهم روح
التفاؤل ، ولم يكن الناس قط من قبل واثقين بقدرتهم ، أن لم يكن على إعادة بناء
أنفسهم ، فعلى الأقل على إعادة بناء المجتمع . وبرغم كوارث السنين السبع ،
وفقدان كندا والهند واستيلاء إنجلترا عليهما ، فقد سيطرت على ذهن فرنسا
فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر حماسة وحيوية بدا أنهما ستعيدان إلى
فرنسا العجوز المتوجعة قوتها وشبابها من جديد . ولم يحدث قط منذ أيام
السفسطائيين الإغريق أن انتشرت مثل هذه الآراء والأفكار الكثيرة ، أو ظهرت
روح البحث والتحقيق والحوار والجدل المنعشة ، فلا عجب أن يحس ديكلوس
حوله « بشئ من اختار العقل بميل إلى التطور والنمو فى كل مكان » (٥) وتما
أن باريس كانت آنذاك عاصمة الفكر فى أوروبا ، فان حركة التنوير أصبحت
حركة واسعة النطاق مثل حركة النهضة الأوربية وحركة الإصلاح الدينى ،
والحق أن حركة التنوير هذه بدت وكأنها ذروة الحركات السابقة . وكانت
النهضة قد ذهبت إلى ما وراء المسيحية لتكتشف الذهن الوثنى ، كما أن
الإصلاح الدينى كان قد كسر قيود السيادة المذهبية ، وعلى الرغم منه تقريبا
أطلق العنان لعمل العقل ، وباتت مقدمات العصر الحديث هاتين تكمل الواحدة
الأخرى ، وأصبح الآن فى مقدور الإنسان فى نهاية المطاف أن يحرر نفسه
من معتقدات العصور الوسطى ومن أساطير الشرق . كما أصبح فى مقدوره
أن يهز كتفيه استخفافا باللاهوت المربك المرعب ، وأن يقف على قدميه
حرا طليقاً . حرا فى أن يشك ، وفى أن يحقق ويدقق . حرا فى أن يفكر

ويجمع ألوان المعرفة وينشرها . حرا في أن يقيم ديننا جديدا حول مذبح اقل
لخدمة البشر ، وكان ثملا كريما شريفاً .

٢ - خليفة الثورة

ولكن كيف حدث كل هذا ؟ ولماذا انقلب كل هؤلاء الفلاسفة وبخاصة
في فرنسا على المسيحية التي كانت فوق كل شيء قد مزجت الأمل بأهوالها
ورعبها ، والصدقات بجرائمها ، والجمال بآثامها وخطاياها ؟

إن الثورة التي قام بها الربوبيون في إنجلترا استطاعت أن تعبر عن نفسها
مع تسامح نسبي حتى من جانب الكنيسة الرسمية ، وربما كان هذا هو السبب
في خمود طيها ، وفضلا عن ذلك كانت الكنيسة الإنجليزية خاضعة للدولة
فلم تعد تزعم زعما فعلا أنها - أي الكنيسة - سلطة منافسة مستقلة . أما الكنيسة
في فرنسا فكانت هيئة قوية تملك نصيبا كبيرا من الثروة الوطنية وأرض
الوطن ، وهي مع ذلك مرتبطة بولاء أسمى مكانة بسلطة أجنبية . ويبدو أنها
كانت تستنزف مزيدا من الثروة من أيدي العلمانيين إلى أيدي رجال الكنيسة
عن طريق الوصية والتوريث ، كما رفضت أن تدفع أية ضرائب أكثر من
« المنح أو الهبات الاختيارية » واحتفظت بآلاف الفلاحين في أراضيها في
استرقاق فعلي ، واحتفظت بالرهبان فيما بدا أنه خمول عقيم . وكم أفادت
الكنيسة من الوثائق الزائفة والمعجزات الكاذبة . وسيطرت على كل المدارس
والجامعات تقريبا ، وعن طريقها أشربت أذهان الشباب بالسخافات المخدرة
المنافية للعقل ، واستنكرت ، على أنه هرطقة ، كل تعليم يتعارض مع
تعليمها واستغلت الدولة في فرض رقابتها على حرية الكلام والصحافة ،
وبذلت الكنيسة غاية الجهد في خنق التنمية الفكرية في فرنسا . وحرصت
لويس الرابع عشر على اضطهاد الهيجونوت غير الإنساني . والتخريب
الحالي من الرحمة لبورت رويال ، وارتكبت الكنيسة إثما في الحملات
الوحشية التي شنتها ضد الألبيجنسيين وإقرار المذابح الوحشية مثل مذبح
سانت برثلسميو ، وأشعلت نار الحروب الدينية التي دمرت فرنسا تقريبا .
وفي وسط كل الجرائم ضد الروح الإنسانية ادعت الكنيسة ، وحملت

الملايين من ذوى العقول الساذجة على الاعتقاد بأنها فوق العقل وفوق الريبة والمساءلة ، وأنها ورثت وحيا إلهيا ، وأنها ممثل الله على الأرض الملهم المعصوم من الخطأ . وأن جرائمها كانت ، بإرادة الله مثل حسناتها .

وقدمت الكنيسة ردودا كثيرة على هذه الإتهامات . وسوف نعرض لها في الوقت المناسب . وفي الوقت نفسه أثارت هذه الإتهامات المتزايدة حفيظة آلاف الناس ودفعتهم إلى الاحتجاج ، وأخيرا إلى العداوة المريرة . وتضاعف عدد المتشككين إلى حد أنهم لم يعودوا يخشون رجال الدين وأحرجوهم علنا بالأسئلة العويصة . وحين دعا الأب تورنمين غير المؤمنين حوالى ١٧٣٠ إلى كلية « لويس الأكبر » ، يقال « إن غرفته اكتظت بالمفكرين الأحرار والربوبيين وأنصار المذهب المادى ، وما استطاع الأب الجليل أن يحول أحدا عن رأيه » (٦) . وجزع رجال الدين من كثرة عدد الفرنسيين والفرنسيات الذين فارقوا الحياة رافضين تناول الأسرار المقدسة للكنيسة . وهددت مدام دى برى بأن تأمر خدماها بالقاء راعى الكنيسة من النافذة حين ألح عليها في قبول مسحها بالزيت المقدس (٧) . وشكا أحد القساوسة من أنه « في اللحظة التي يظهرون فيها أمام الناس يجبرون على الدخول في مناقشة ، فنحن مطلوب منا ، وعلى سبيل المثال ، أن نثبت فائدة الصلاة للإنسان الذي لا يؤمن بالله ، وضرورة الصيام لإنسان أنكر طوال حياته خلود النفس ، والمناقشة مزعجة إلى أقصى حد ، على حين أن أولئك الذين يسخرون ويهزأون يقفون إلى جانبنا » (٨) .

وذكر بارييه في ١٧٥١ « قد نرى في هذه البلاد ثورة تؤيد البروتستانتية (٩) وكان مخططا . فان طرد الهيجونوت لم يترك طريقاً وسطا بين الكاثوليكية وعدم الإيمان بصحة الكتب المقدسة . إن الفكر الفرنسى المتحرر تخطى الإصلاح الدينى وقفز طفرة واحدة من عصر النهضة الأوربية إلى عصر الاستنارة ، وهكذا في فرنسا فان الذهن الفرنسى لم يعطف بثورته نحو الجانسينيين أو إلى الفئة القليلة الباقية من البروتستانت ، بل انعطف إلى مونتاني وديكارث وجاسندى وبيل ومونتسكيو ، ولما رجع المفكرون الأحرار الفرنسيون إلى ديكارث رفضوا كل آرائه تقريبا اللهم إلا « شكه المنهجي »

وتفسيره الآلى للعالم الموضوعى . وكان بيل موضع إجلال وتقدير باعتباره أدق العقلانيين المتأملين ، فقد ولدت شكوكه مزيدا من آلاف الشكوك . وكان « قاموسه » معيناً لا ينضب من الدروع التى يتسلح بها أعداء الكنيسة ضدها .

وكان ما حدث فى إنجلترا مثالا حافزا ملهما مشجعا للمفكرين الأحرار فى فرنسا . وبدأ أولاً دعوة فرنسيس بيكون إلى العلم الاستقرائى تبشر بثمار أكثر بكثير مما يبشر استنباط ديكارت السحرى لله والحلود من وجود ديكارت . ثم كانت مادية هوبز الفظة التى لم تكف قط عن إثارة ديدرو . وهناك أيضا نيوتن الذى بدأ أنه هبط بالاله إلى مجرد ضاغط زرار فى آلة العالم ، ولم يكن الفرنسيون قد عرفوا بعد أن نيوتن أكثر إنتاجا فى اللاهوت منه فى العلوم . ولا ندس الربوبيين الإنجليز الذين أمدوا فولتير بالشجاعة والقوة الدافعة . وأخيراً جاء لوك ، لأن المتشككين الفرنسيين رأوا أن صرح الدين ينهار أمام القول بأن كل الأفكار مستمدة من الإحساس . وإذا كان الإحساس نتاج قوى خارجية فان الدهن نتاج الخبرة ، وليس هبة خالدة من لدن اله لا يراه أحد . وإذا كانت الخبرة تخلق الشخصية ، فان الشخصية يمكن تغييرها بتغيير طرق التعليم ومادته . وإصلاح النظم الاجتماعية ، ومن هاتين القضيتين خلص رجال مثل ديدور وهلفشيوس ودى هولباخ إلى نتائج ثورية . وتساءل فولتير مستحضرا لوك فى ذهنه « هل يمكن أن يكون ثمة شئ أعظم من أن تثير العالم بأسره سياسيا وإجتماعيا بوضع حجج ومناظرات » . (١٠) (مات فولتير قبل ١٧٨٩) .

واستمع مرة أخرى إلى ما كتبه الماركيز دارجنسون اليقظ فى ١٧٥٣ « قد يكون من الخطأ أن نعزو ضياع الدين فى فرنسا إلى الفلسفة الإنجليزية التى لم تكتسب أكثر من نحو مائة فيلسوف فى باريس ، بدلا من إرجاعه إلى الكراهية التى أضمرها الفرنسيون لرجال الدين إلى أقصى الحدود »

ثم يضيف دارجنسون بعد التنبؤ بالثورة ، مما أسلفنا ذكره :

ستكون الثورة شيئا مختلفا كل الاختلاف عن الإصلاح الدينى - وهو

خليط مشوش من الخرافة والخرية جاءنا من ألمانيا في القرن السادس عشر .
ولما كانت أمتنا وقرننا قد استنارا بطريقة متباينة كل التباين ، فأنهما سيسيران
إلى حيث ينبغي لهما أن يسيرا : سيطردان رجال الدين ، ويلغيان مهنة
القساوسة ، ويتخلصان من كل الرحي وكل الأسرار الغامضة فلا يتحدث
المرء في مصلحة رجال الدين ولا يساندهم في دوائر المجتمع وإلا كان موضع
سخرية واستهزاء ، واعتبر جاسوسا لمحاكم التفتيش . ويشير القساوسة إلى أنه
في هذا العام نقص عدد أعضاء الجماعات الدينية بمقدار الثلث ، وهجر
الناس الكلية اليسوعية ، وانسحب ١٢٠ راهبا من هؤلاء الرهبان الذين
ساعت سمعهم إلى حد كبير . (١١)

وكان ثمة تأثيرات فكرية أخرى أضعفت عقيدة العصور الوسطى الدينية .
وانضم الفلاسفة إلى أصحاب المذهب المحافظ (الأرثوذكسي) في رفض
سبينوزا ، لأن هذا اليهودي الكبير دمع بأنه ملحد ، وكان من الخطر التحدث
عنه دون إتهامه ، كما حرص هييم وفولتير على أن يفعلوا . ولكنهم كانوا
يقرأون سبينوزا سرا ، وكانت « رسالته اللاهوتية السياسية » تثير نقد الأسفار
المقدسة . وشرح كونت بولانفيلير سبينوزا بحجة تفنيده . إن هيوم الذي
تأثر بفرنسا هو نفسه ، كان يؤثر فيها كذلك ، وكان البنائون الأحرار
(الماسونيون) يؤسسون لهم مراكز في فرنسا ، حيث كانوا يمارسون سرا
هرطقهم الربوبية . وكانت الكشوف الجغرافية والتاريخ والدراسة المقارنة
للأديان تضيف نارا إلى البوتقة التي تجري فيها اختبار المسيحية بما لم يعهد له
مثيل قط من قبل . وكان كل علم من العلوم في نموه وتقدمه يزيد من درجة
احترام العقل ، ومن الإيمان بقانون كوني ، ومن عدم الإيمان بالمعجزات ،
وبالذات بأعظمها شيوعيا وانتشاراً ، ألا وهي تحويل خمسين ألف كاهن
يومية الخبز والخبز إلى جسم المسيح ودمه .

وعملت القوى الإجتماعية على إنحلال العقيدة . وكان كل إزدياد في الثروة
يعجل في التسابق على اللذة والمتعة ، كما كان يجعل الصيود على الأخلاق المسيحية
أكثر إزعاجا يوما بعد يوم ، في باريس التي احتفظ فيها أكثر الملوك مسيحية
بمجموعة من الخليلات ، والتي إحتلت فيها مدام دي بمبادور مكان السيدة

مريم العذراء . بل أن الانحلال الجلتى في ذلك العصر تحول إلى إتهام للمسيحية ، فكيف يتأتى ، بعد سبعة عشر قرنا من سيطرة المسيحية ، ألا تكون أخلاق أوروبا أحسن حالا من متوحشى أمريكا أو « الوثنيين في الصين ؟ » .

وكانت كل طبقة ، عدا الفلاحين ، تضم أقلية متشككة ، واستاءت البروقراطية الحكومية من استقلال الكنيسة وإعفائها من الضرائب . والرباط الوثيق القديم بين الكنيسة و « ساعدها » الدنيوى العلمانى وهو الدولة « بدأت تنقسم عراه . وكان هناك مفكرون أحرار ، مثل مالشرب في مصلحة الرقابة . وكان يحمى بكل قواه ديدرو ودائرة المعارف . وأوثق صلة بالملك كانت مدام دي مبادور التي كانت تكره اليسوعيين ، والتي اعتبرها فولتير (واحدنا منا) . ورأت الأرسطراطية في الكنيسة دعما لمركز أسرة البوربون التي كانت قد أطاحت بحكم هذه الأرسطراطية ، ومن ثم لم تكن هذه الطبقة تعارض أضعاف رجال الدين ، بل لتمد همل كثير من النبلاء وهم ويا متهان فولتير وعدم توقيره للكنيسة والذيل منها ، وأبدى أفراد الطبقة الوسطى العليا ارتياحهم ورضاهم عن المفكرين الذين كانوا يحاربون رجل الدين . لأن هذه الطبقة لم تغفر للكنيسة استنكار الفائدة (الربا) وإيثارها ملاك الأرض على رجال المال ، فلو أن هؤلاء الأساقفة المتعجرفين أذيقوا المذلة والهوان لصعدت الرجوازية إلى مراقى الشهرة والعمرة والسلطان ومن ثم فان رجال المال ، من أمثال بويلنيير وهافشيوس ودى هولباخ فتحوأ أبوابهم وخزائهم ، بل حتى في بعض الحالات قلوبهم ، للحرب ضد الكنيسة . وكان المحامون منذ زمن غير قصير يحقدون على رجال الدين ويحسدونهم ، وكم تطلعوا إلى اليوم الذى يحكمون فيه الدولة . كما كانوا بالفعل يحكمون البرلمانات . وذهب أحد تقارير الشطة في ١٧٤٧ إلى أنه لا يكاد يوجد موظف في برلمان باريس لا يحتفظ بكتاب أو مخطوط منافع للدين في بيته (١٢) . وعجت مقاهى باريس بالاحاد . وكان هجاء رجال الدين والسخرية منهم متعة ظرفاء المدن الذين أشاروا إلى الله بأنه « السيد وجود » وانتشرت المطبوعات المعادية لرجال الدين إنتشارا واسعا حتى في الأقاليم ، ووزع بعض الباعة المتجولين لقاء ربح وفير ، ومن باب إلى باب ، منشورات عنونها « أشهر الدجالين

الثلاثة^(*) ألم ينتقل إلى رجال الدين أنفسهم عدوى الشك الديني ، بل هنا وهناك في كل مكان ، عدوى الاتحاد الصريح غير المقنع ؟ وإليك على سبيل المثال .

٣ - جان مسلييه : ١٦٧٨ - ١٧٣٣

كان جان راعي أبرشية أترينى في شمبازيا . وكان في كل عام يمنح الفقراء كل ما يتبقى من راتبه بعد تسديد نفقات حياته المعتدلة البعيدة عن الإسراف والتبذير . وبعد ثلاثين عاماً من حياة هادئة مثالية في وظيفة الراعي ، قضى نحبه وهو في الخامسة والخمسين ، موصياً بكل ما يملك لأهالي الأبرشية ، تاركاً ثلاث نسخ من مخطوطة عنوانها « عهدى الجديد » وجهت إحداها إلى شعب الأبرشية ، توسل فيها إليهم على الظروف الذي وضعت فيه المخطوطة ، أن يغفروا له أنه خدم الخطيئة والأهواء طوال مقامه بينهم . وواضح أنه فقد الإيمان بالدين قبل أن يرسموه كاهناً « إننى لم أتقاد عملاً يتعارض مع مشاعرى بشكل صريح طمعا في المال ، بل أنى امتثلت في هذا لأبوى^(١٣) ونشر فولتير أجزاء من « العهد الجديد » ١٧٦٢ وأصدر ديدرو ودى هولباخ خلاصة له في ١٧٧٢ تحت عنوان « رجاحة عقل الكاهن مسلييه » ولم يطبع النص الكامل حتى ١٨٦١ - ١٨٦٤ ونفدت طبعته منذ عهد بعيد . ويندر الحصول عليه . وفي كل الحملة ضد المسيحية من بيل إلى الثورة ، لم يوجد هجوم متطرف قاس لا يرحم مثل هجوم كاهن القرية هذا . ويبدو أنه بدأ شكوكه بدراسة الكتاب المقدس . وأظهرت نتيجة هذه الدراسة أن الكنيسة كانت حكيمة إلى حد ما في إبعاد الكتاب المقدس عن العامة . وكان يجدر بها أن تحتفظ به بعيداً عن متناول رجال الدين أيضاً . ووجد الأب يوحنا صعوبات كثيرة في الكتاب المقدس . لماذا اختلف نسب السيد المسيح في إنجيل متى إختلافاً كبيراً عنه في إنجيل لوقا ، إذا كان كلاهما

(*) المخطوط محفوظ في المكتبة الوطنية في باريس (وهو بهذا يقصد الأنبياء ، مما لا تفره عليه) .

منزلا من عند الله ؟ لماذا لم تذته سلسلتا النسب هاتان بيوسف إذا كان سيعنى
سريعا من انحاب يسوع ، لماذا يمتدح ابن الله بأنه ابن داود الذى كان زانيا
بكل معنى الكلمة ؟ وهل تنطبق نبوءات العهد القديم على المسيح ، أم أن
هذه التطبيقات مجرد شطحات للقوة اللاهوتية ؟ وهل كانت معجزات العهد
الجديد حيلة أو خداعات ورعة ، أم كانت عمليات طبيعية أسئ فهمها ؟
وهل نصدق هذه الحكايات أم نتبع العقل ؟ وصوت جان إلى جانب العقل
وأيده :

« لن أضحى بعقلى ، لأن عقلى وحده يمكننى من التمييز بين الخير
والشر وبين الحق والضلال ... لن أتخلى عن الخبرة لأنهم مرشد
وهاد أفضل بكثير من الخيال ، أو من سلطان المرشدين الذين
أرادوا أن يزودونى به . لن أرتاب فى حواسى . ولست أتجاهل
أنها يمكن أحيانا أن تؤدي بي إلى الخطأ . ولكنى من جهة أخرى
أدرك أنها لن تضلنى دائما ... إن حواسى تكفى لتصحيح الأحكام
والقرارات المتسرة التى ملت إلى إتخاذها (١٤) .

ولم يجد جان فى العقل مسوغا للإيمان بالإرادة الحرة أو خلود النفس ، ورأى
أنه « يجدر بنا أن نكون شاكرين أن تهباً لنا جميعا نوم أبدي بعد نصب وصخب
الحياة الدنيا التى تسبب المشقة أكثر مما تسبب اللذة لغالبيتنا ... عودوا
جميعا فى سلام إلى المستقر العام الشامل الذى جشتم منه ، ومروا دون ضجة
أو تدمر مثل كل الكائنات التى حوالكم » . (١٥) وعلى أولئك الذين دافعوا
عن فكرة الجنة ، من قبيل العزاء ، أجاب « بأن أقلية ضئيلة ، على زعمها ،
حققت هذا الهدف ، على حين كان مآل الأغلبية إلى الجحيم . فكيف إذن
يمكن أن تكون فكرة الخلود عزاء ؟ إن العقيدة التى تخلصنى من المخاوف
الرهيبية ... تبدو مرغوبا فيها أكثر من الشك الذى تركنى مؤمنا بالله يتحكم
فى عطفه فلا يمنحه إلا لذوى الحظوة لديه ، ويهبى للآخرين السبيل ليكونوا
جديرين بالعذاب الأبدي ، كيف يمكن لأى إنسان متحضر أن يؤمن بالله
يحكم على المخلوقات بالخلود فى الجحيم . ؟ »

هل هناك في الطبيعة إنسان بلغ من التمسوة حداً يتعمد فيه تعذيب ، لا أقول رفاقه من الكائنات ، بل أي كائن واع حساس أياً كان ؟ فأقروا إذن يا رجال اللاهوت أن إلهكم طبعاً لمبادئكم ، شرير أكثر بكثير من أي شرير من بني الإنسان . إن الفساوسة ورجال الدين جعلوا من الإله كائناً خبيثاً ما كراً صارماً إلى حد أن فئة قليلة في هذه الدنيا هي التي لا تود إلا أن يكون الإله موجوداً .. وأية أخلاق نتحلى بها إذ كنا نقلد هذا الإله . (١٦)

ورأي فولتير في هذا شيئاً من التطرف ، وبذل أقصى الجهد عند نشره « العهد الجديد » (الذي ألفه جان) في أن يلفظ من الحاد الكاهن بالرهوبيه ، ولكن مسلييه كان عنيدا متشددا . واستطرد قائلاً أن إله المسيحية هو منشيء كل الشرور ، لأنه حيث أنه قادر على كل شيء يتم دون رضاه وموافقته ، فاذا وهبنا الحياة فإنه كذلك كتب علينا الموت ، وإذا وهبنا الصحة والثروة ، فإنه يعوض منهما بالفقر والقحط والمصائب والحروب . (١٧) إن في العالم دلائل كثيرة على تصميم بارع ، ولكن هلا توجد فيه علامات كثيرة بنفس القدر على أن العناية الإلهية ، إن وجدت ، قادرة على إيقاع أشد أذى شيطاني؟

إن كل الكتب زاخرة بأشد المديح والثناء رياء ونفاقاً على العناية الإلهية التي أفرطوا في الثناء على رقابتها اليقظة ، ومهما يكن من أمر فإننا إذا تفحصنا كل أجزاء الكرة الأرضية لوجدنا أن الإنسان المتحضر وغير المتحضر على السواء في صراع دائم مع العناية الإلهية . فهو مضطر إلى أن يصد الضربات التي تنزلها به في صورة أعاصير وعواصف وصقيع وبرد وفيضانات وجذب وغيرها من مختلف النازلات التي تجعل كد الإنسان وجده غير ذي جدوى . وفي إيجاز أرى أن البشر جميعاً مشغولون باستمرار في حماية أنفسهم من الحيل الشريرة الخبيثة التي تدبرها هذه العناية الإلهية التي يقال إنها ساهرة على توفير السعادة لهم . (١٨)

وفوق كل شيء هل وجد إله أغرب وأبعد عن التصديق من هذا ؟ إنه لآلاف السنين ظل محتفياً عن أعين البشر ، واستمع دون استجابة واضحة بريئة

لصلوات آلاف الملايين ودعواتهم وثنائهم عليه . والمفروض أنه حكيم بالغ الحكمة ، ولكن ملكه يسوده الجلال والاضطراب والحراب . والمفروض أنه خير ولكنه يعاقب كما يعاقب شيطان مجرد من الروح الإنسانية . والمفروض أنه عادل وهو يهين للأشرار سبل الرخاء والإزدهار ، على حين يتعذب القديسون حتى الموت . إنه منهمك دائماً في الخلق والتدمير (١٩) .

وبدلاً من الاعتقاد مثل فولتير بأن الإيمان بالله أمر طبيعي عام ، أكد مسلييه أن مثل هذا الإيمان أمر غير طبيعي ، وأنه يجب أن يصب في أذهان المراهقين أن :

كل الأطفال الملاحدون - ليس الميهم فكرة عن الإله ... ويؤمن الناس بالله بناء على كلام أولئك الذين لا يعرفون عنه أكثر مما يعرف الأولون ، إن مربيائنا هن أول معلمى اللاهوت . إنهن يتحدثن إليهم عن الإله كما يتحدثن عن آدميين تحولوا إلى ذئاب ... إن قلة قليلة من الناس كانت تتخذ إلهاً لولا ما يبذل من جهد في أن يجعلوا لهم إلهاً. (٢٠)

وعلى حين أعلن معظم الملاحدين عن إعجابهم بيسوع ، نرى مسلييه يشعل السيد المسيح نفسه في هدمه الغاضب الانفعالي للعقيدة الدينية . وقبل كل شيء ، أى رجل عاقل يصدق أن الله ، لكى يسترضى البشر ويستميلهم .. يمكن أن يضحى بأبنه البريء الذى لم يرتكب إثماً ؟ (٢١) أما عن يسوع نفسه فيقول : -

إننا نرى فيه ... متعصباً وبغضاً للبشر ، يعظ البائسين فينصحهم بأن يكونوا فقراء ، ويكفوا الطيبة ويجحدوها ، ويكرهوا اللذة ويلتمسوا الآلام والشقاء ، ويحتقروا أنفسهم ، ويطلب إليهم أن يتخلوا عن الأب والأم وكل أواصر الحياة ليتبعوه . أية أخلاق كريمة ! ... لا بد أن تكون سماوية لأنها غير عملية بالنسبة للإنسان (٢٢)

وينتقل مسلييه إلى مادية كاملة : وليس من الضروري أن نذهب إلى ما وراء المادة لنسأل عن خالقها . ويمكن أن يتخلف لغز المنشأ خطوة إلى الوراء ليفسح مجالاً للأسئلة الطبيعية للطفل : « من الذى خلق الله ؟ » وأنا

أقول لكم أن المادة تعمل من نفسها بنفسها ... واطركوا لرجال اللاهوت
عليهم الأولى وليس للطبيعة من حاجة بهذا لإحداث كل الآثار والنتائج
التي تراها (٢٣) وإذا كان لزاماً أن تعبدوا أحداً ، فاعبدوا الشمس ، كما
تفعل شعوب كثيرة ، فإن الشمس هي الخالق الحقيقي لحياتنا وللصحة والضوء
والدفء والبهجة والسرور . ولكن واحسرتاه ! ويأسف مسلييه ، لو أن
الدين كان واضحاً لكان أقل جاذبية وفتنة لدى الجهال ... إن هؤلاء بحاجة
إلى الغموض والأسرار والحرافات والمعجزات والأشياء التي لا يمكن
تصديقها (٢٤) إن المساوسة والمشرعين ، بابتداع الأديان وإختلاق
الأسرار ... قد أرضوا أذواق الجهال ، إنهم بهذه الطريقة يجذبون المتحمسين
والنساء والأميين . (٢٥)

وصفوة القول ، في رأى مسلييه ، أن الدين كان جزءاً من مؤامرة
بين الكنيسة والدولة لإرهاب الناس إلى إذعان مريح للحكم المطلق (٢٦) .
إن الكهنة « حرصوا كل الحرص على أن يجعلوا إلههم مرعباً متقلبا طاغية
كثير النزوات والأهواء . وكان لزاماً أن يكون كذلك من أجلهم حتى يكون
في خدمة مصالحهم المتنوعة » (٢٧) وتقع تبعة هذه المؤامرة على رؤوس
رجال الدين أكثر منها على الملوك ، لأنهم يسيطرون على الأمير منذ طفولته ،
عن طريق كاهن الاعتراف ، ويلقنونه الحرافات ، ويشوهون عقله ويعوقون
نموه ويقودونه إلى التعصب الديني والاضطهاد الوحشي (٢٨) وبهذا :

زعزعت الخلافات الدينية أركان الإمبراطوريات وأدت إلى
الثورات ودمرت الملوك وخربت أوربا بأسرها ، ولم يكن من
الميسور إخماد هذه النزاعات الحقيرة حتى في أنهار من الدماء .
إن الأنصار المتحمسين لدين يدعو إلى البر والإحسان والتآلف
والسلام أثبتوا أنهم أشد ضراوة وقساوة من أكلة لحوم البشر أو
المتوحشين ، في كل مرة يستثيرهم فيها معلموهم إلى تحطيم إخوتهم ،
وليس ثمة جريمة لم يرتكبها الناس في سبيل إرضاء الرب أو تسكين
سورة غضبه (٢٩) ... أو إقرار خداع الدجالين لحساب كائن لا
يوجد إلا في خيالهم وحدهم (٣٠)

إنهم يدافعون عن هذه المؤامرة الضخمة المستمرة بذاتها من جانب الكنيسة والدولة ضد الإنسان والعقل على أساس أن ديانة خارقة للطبيعة ، بل قل ديانة إرهاب ، أمر لا غنى عنه في مهمة بناء الفرد والأخلاق .

ولكن هل حقاً أن نظرية الجنة والنار تجعل الناس على جانب أكبر من الفضيلة ، وهل الأمم التي يسودها هذا الزعم تشتهر بالسلوك الحميد والخلق القويم ؟ (٣١) ويكفي لتحرر من الوهم أن نفتح أعيننا على أخلاق أشد الناس تمسكاً بالدين ونفكر فيها ملياً ، وسنرى طغاة متعحرفين ، ورجال البلاط ، ومغتصبين لا حصر لهم ، وحكاما لا ضمائر لهم ، ودجالين وزانين وفاسقين وأباحيين فجرة ، وعاهرات ولصوصا ، وأوغاداً من كل صنف ، لم يشكوا لحظة في وجود إله محب للإنتقام ، أو لم يشكوا في عذاب الجحيم أو جنة النعيم (٣٢) .

كلا ، إن الأفكار اللاهوتية ، على الرغم من اعتراف كل الناس تقريبا بها ، فإن تأثيرها على سلوكهم ضعيف ، فالإله بعيد كل البعد ولكن الإغراء قريب « من ذا الذي ترهبه وتخيفه فكرة الإله ؟ نفر قليل من الضعاف البائسين المتبرمين بالحياة ، وبعض أفراد انطفاآت فيهم بذرة العواطف والشهوات بحكم السن أو العجز والوهن أو تعثر الحظ . (٣٣) إن الدولة ، لا الكنيسة ، هي التي تخلق النظام وتعود المواطنين على طاعة القوانين » إن القيود والضوابط الاجتماعية أقوى من الدين في تقويم سلوك الناس (٣٤) وأحسن العلاقات ، مع تعاقب الأيام ، هي تلك التي تؤسس على العقل والذكاء .

ولكني يتبين للناس مبادئ الأخلاق القويمة فإنهم ليسوا بحاجة إلى اللاهوت أو الوحي أو الآلهة . إنهم ليسوا بحاجة إلا إلى الفطرة السليمة وحسن الإدراك ، إنهم ينبغي عليهم أن يتفكروا في أنفسهم ويتأملوا طبيعتهم ، ويتدبروا مصالحهم الواضحة ، ويأخذوا بعين الاعتبار هدف المجتمع وهدف كل عضو فيه ، ومن ثم يدركون بسهولة أن الفضيلة نعمة وأن الرذيلة نقمة على رفاقهم من الكائنات . والناس أشقياء لمجرد أنهم جهلة ، وهم جهلة لأن كل شيء يتأمر على

الحيلولة بينهم وبين الاستنارة . وهم أشرار لجرد أن عقولهم لم ينم ولم يتطور بعد بدرجة كافية : (٣٥)

ويستطيع الفلاسفة أن يبنوا أخلاقاً طبيعية فعالة ، لو لم يكرهوا على معتقد تقاليدى زائف خشية الكهنة الأقوياء المتسلطين :

إن اللاهوت منذ أقدم العصور هو الذى حدد مسار الفلسفة وبم ساعدها اللاهوت ؟ إنه حولها إلى رطانة غير مفهومة ... ذات ألفاظ لا معنى لها ، أكثر ملاءمة للتعمية منها للتنوير ... كيف اضطرت ديكارت وماليرانش وليبنز وكثيرون غيرهم لإبتداع فرضيات ومراوغات ليوفقوا بين كشفهم وبين الأفكار الحياتية والأخطاء الفاضحة التى أضفى عليها الدين صفة القداسة ! وأية احتياطات لم يلجأ إليها أعظم الفلاسفة لحماية أنفسهم ، حتى إلى حد المغامرة بوصفهم بانطيش والحمق ، وبأن كلامهم غير مفهوم إذا تعارضت أفكارهم مع مبادئ اللاهوت ! وكان القساوسة اليقظون على أتم استعداد لهدم المبادئ والآراء التى يتعذر التوفيق بينها وبين مصالحهم . وكل ما استطاع الأفراد المستنيرون أن يفعلوه هو أن يتحدثوا ويكتبوا فى معان خبيثة وغالبا مطاوعة موصومة بالجبن ، حتى يوفقوا بين الباطل والحق توفيقاً مخزياً . كيف أمكن أن يدعى الفلاسفة والحديثون ، تحت التهديد بأقصى الإضطهاد والتعذيب ، إلى نبذ العقل والخضوع للعقيدة - أى لسيادة رجال الدين وسيطرتهم - وكيف يتأتى لأناس مكبلين بمثل هذه القيود والأغلال أن يطلقوا العنان لعبقريتهم ومواهبهم ... أو يعجلوا بتقديم الإنسانية (٣٦) ؟

وكان لدى بعض الفلاسفة من الشجاعة ما استطاعوا معه أن يتقبلوا الخبرة والعقل هاديا ومرشدا لهم ، ويخطموا أغلال الخرافة - لوسيبوس وديموقريطس وإبيقور وسترابو - ولكن مناهجهم كانت بسيطة معقولة مجردة من الأعاجيب والمعجزات من أجل عشاق الخيال حتى اضطرت إلى الاستسلام لأحداس أفلاطون وسقراط وزينون الخرافية . ومن بين الفلاسفة الحديثين اتبع هونز وسينوزا وبيل وغيرهم نهج إبيقور (٣٧)

ورثى مسلييه لما منيت به البشرية من خسارة نتيجة لسيطرة اللاهوت

على الفلسفة . ودافع عن حرية الفكر حقاً أساسياً ، يمكنه وحده أن يحقق للناس معنى الإنسانية وعظمة النفس (٣٨) .

إنهم باظهارهم الحقيقة وحدها يمكنهم أن يدركوا أفضل مصالحهم ، والعوامل الحقيقية التي تؤدي بهم إلى السعادة . لقد طال العهد بمعلمي الناس وهم يركزون أبصارهم على السماء ، فليرجعوا بأبصارهم ثانية إلى الأرض . لقد تعب الذهن البشري من اللاهوت المبهم والخرافات السخيفة ، والأسرار العويصة والطقوس الصببانية . فليشغل هذا الذهن البشري بعد هذا الإرهاق بالأشياء الطبيعية والأهداف والأشياء الواضحة والحقائق المعقولة والمعرفة النافعة . (٣٩)

فليطلقوا حرية الكلام والفكر والصحافة والطباعة وليكن التعليم علمانياً غير مفيد . إذن لأسرع الناس الخطى يوماً بعد يوم إلى اليوتوبيا (المثالية) . إن النظام الإجتماعي الراهن جائر ، أنه يهيئ لأقلية ضئيلة الثراء الحامل وينشر فيها الفساد نتيجة للترف واللبذخ ، على حساب الإبقاء على الملايين في فقر مدك وجهل مخز . ونظام الملكية هو أس البلاء ، فالتملك لصوصية ، وقد كيفوا التعليم والدين والقانون لحماية هذه اللصوصية وإجازتها ، (٤٠) وإن ثورة للقضاء على مؤامرة الأقلية ضد الأغلبية لها ما يبررها كل التبرير . وصاح مسلييه في غضبته الأخيرة « أين جاك كليمنت (قاتل هنري الثالث) ورافايك (قاتل هنري الرابع) في فرنسا ؟ هل بقي على قيد الحياة في أيامنا هذه رجال يطيحون برووس هؤلاء الجبابرة البشعين المنحرفين أعداء الجنس البشري ، وبهذا يخلصون الناس من الطغيان (٤١) ؟ فلنوزع الأمة الملكية توزيعاً عادلاً ، وليشتغل كل إنسان بعمل مناسب ، وليكن الإنتاج قسمة متساوية بينهم ، وليتزوج الرجال والنساء وليفترقوا متى شاءوا ، ولينشأ أطفالهم معاً في مدارس مشتركة ، وعندئذ تكون ثمة نهاية للنزاع في الأسرة ونهاية لحرب الطبقات والفقير . وهنا تكون المسيحية في النهاية حقيقية صادقة (٤٢) .

وبعد أن ذكر جان مسلييه كل ما أسلفنا ، ختم إنجيله أو عهده الجديد بعبارة يتحدى فيها ، كما أدرك هو ، كل الذين يمتقونه ويصبون عليه اللعنات :

(م ٢ - قصة الحضارة)

دعهم يفكروا أو يحكموا ويقولوا ويفعلوا ما يريدون ... لن أعبأ بهم كثيراً ... بل إنى اليوم لم أعد أعبأ كثيراً بما يحدث في العالم . إن الأموات الذين أوشك أن ألحق بهم قريباً ، لا يعانون الآن شيئاً ولم يعودوا يزعجون أنفسهم . ومن ثم فأنا أضع نهاية لكل هذا . أنا الآن أشبه شئ بالعدم ، وبعد قليل سأصبح لا شئ حقاً (٤٣) .

هل وجد ثمة عهد أو ميثاق مثل هذا في تاريخ البشرية جمعاء ؟ تصور الكاهن المنعزل مجرداً من كل عقيدة ومن كل أمل ، وهو يعيش منسياً لا ذكر له في قرية قد ترتعد فيها كل النفوس رعباً ورهباً ، إلا نفسه هو ، لمجرد الاطلاع على أفكاره الخفية . ولهذا لم يتحدث بمثل هذه الحرية إلا لمخطوطته . وهناك ، ودون إكترات ودون معرفة واسعة بطبيعة الإنسان ، صب كل غيظه واستيائه في صراحة بالغة معادية للدين غاية العداوة مما لم يعهده حتى عصره نفسه . وهنا كانت حملة فولتير ضد « المنبوذين » وكل مادية لامتري وكل الحاد دي هولباخ ، وكل نخيال ديارو الجامع المدمر ، بل شيوعية بابيف أيضاً . واصدر فولتير « عهد » جان مسلييه بعد تردد ، ونشره دي هولباخ فرحاً مغتبطاً ، ومن ثم اختمر في ذهن فرنسا وأسهم في التمهيد لسقوط النظام القديم . ونشوة الابتهاج بالثورة الفرنسية .

٤ - هل الإنسان آلة ؟

إن جوليان أجوفروي دي لامتري رد على هذا السؤال بالإيجاب . ولد في سان مالو ١٧٠٩ لتاجر ميسور ، وتلقى تعليماً واسعاً واعتزم أن يكون شاعراً . وحيد والده الوظيفة الكنسية باعتبارها أقل خطراً ، فأرسله إلى إحدى الكليات في بليسيس حيث شب الولد جانسنيا متحمساً . ولكن طبيباً صديقاً للوالد رأى (هكذا يقول فردريك الأكبر) أن طبيباً عادياً يمكن أن يحصل من علاج المرضى على أكثر مما يحصل عليه القسيس الفاضل من عمليات الغفران . (٤٤) ومن ثم حول جوليان إهتمامه إلى التشريح والطب وحصل على درجة في الطب من ريمس ، وتعلم على بورهاف في ليدين ، وكتب عدة أبحاث طبية ، وعمل جراحاً في الجيش الفرنسي ، ورأى واحداً

في المائة من المجد والعظمة وتسعة وتسعين في المائة من حالات الإسهال (٤٥) في ساحتي القتال في دتنجن وفونتنوي ، ولزم هو نفسه الفراش أثر حمى شديدة ، فلما شفي زعم أن صفاء ذهنه أو موضوع تفكيره كان يختلف باختلاف درجة الحمى . ومن ثم خلاص إلى أن التفكير وظيفة المخ ، ونشر هذا كله وما يرتبط به من آراء ١٧٤٥ تحت عنوان « التاريخ الطبيعي للنفس » .

وسار البحث على هذا المنوال : « نحن لا نعرف ما هي النفس . ولا نعرف ما هي المادة ، ولكننا نعرف على أية حال أنه لا توجد نفس بلا جسد . ولدراسة النفس يجب دراسة الجسم ، ولدراسة الجسم ينبغي أن نبحث في قوانين المادة . إن المادة ليست مجرد امتداد ، إنها أيضاً قدرة على الحركة ، وهي تشتمل على مصدر فعال يتخذ مزيداً من الأشكال في مختلف الأجسام ، ولسنا نعرف أن للمادة في ذاتها قوة الإحساس ، ولكننا نشهد دليلاً على تلك القوة حتى في أحظ الحيوانات . وإنه لأكثر إتفاقا مع المنطق أن نعتقد بأن هذه الحساسية تطور من إمكانية من أصل واحد في المادة ، من أن تعزوها إلى نفس خفية صبت في الأجسام عن طريق قوة خارقة للطبيعة . وعلى هذا فإن هذا المصدر الفعال « في المادة يتطور في النبات والحيوان حتى إذا كان في الإنسان مكنه من أن يدق قلبه ، ومن أن تهضم معدته ومن أن يفكر مخه . وهذا هو التاريخ الطبيعي للنفس . » -

وارتعدت فرائض القسيس في كتيبه لامترى فزعا لهذه النتيجة ، وصاح منذراً متوعداً ، وفصل الطبيب الفيلسوف من وظيفة الجراح في الجيش ، وكان يمكن أن يهب زملاؤه الأطباء لنجدته ، لولا أنه كان قد كتب في نفس الوقت تقريبا كتاباً صغيراً تحت عنوان « سياسة الأطباء » يهجو فيه دسائسهم في تنافسهم على الوظائف التي تدر مالا وفيراً . وانضموا إلى مهاجمته واستنكار آرائه . ورأى أن عمله في الطب قد أنهار كما انهارت شهرته ، ففر إلى ليون ، وهناك شن هجوماً آخر على مهنة الطب وتحول إلى التنسفة .

وهكذا أصدر لامترى في ليون كتاب (الإنسان الآلة) وهو يقصد بالآلة هنا جسماً ترجع كل أفعاله إلى أسباب وعمليات بدنية أو ميكانيكية . أما

جسم الحيوان آلة فيتضح له من مائة ظاهرة : فإن جسم الحيوان يظل ينبض ويرتجف ، وأن أمعائه تظل تتمعج (التمعج موجات متعاقبة من تقلص لا إدارى تحدث في جدران الأمعاء فتدفع محتوياتها إلى الأمام) لبعض الوقت بعد الموت . وتنبض العضلات التي تفصل عن الجسم إذا نهبت وهكذا . فالحيوانات عندئذ آلات ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم لا يكون الإنسان ، وعظامه وعضلاته وأوتاره وأعصابه قريبة الشبه إلى حد بعيد بالحيوانات العليا ؟ وواضح أن الدهن يعتمد على العمليات الفيزيائية الكيميائية في الجسم والأفيون والقهوة والحمرة ومختلف العقاقير لا تؤثر في الجسم وحده . بل إنها يمكن أن تغير مجرى التفكير وطبيعته ، ومزاج الإرادة وقوتها . إنك إذا غيرت بعض الأنسجة في مخ فونتينيل جعلت منه شخصاً أحرق أبله (٤٦) ، إن مرض الجسم يمكن أن يضعف الدهن . إن النفس تكتسب حيوية ونشاطاً بالجسم ، وتكتسب حدة وذكاء كلما قوى الجسم (٤٧) ، والغذاء يؤثر في الخلق ، وعلى هذا فان « الانجليز الذين يأكلون اللحم أحمر مشويا بالدم ، غير مطهروا طهيرا جيدا مثل لحومنا ، يبدو أنهم يشتركون بشكل أو بآخر في الوحشية تبعاً لهذا اللون من الطعام (٤٨) فهل ندهش إذن إذا وعى الفلاسفة دائماً في أذهانهم صحة الجسم حفاظاً على صحة النفس ؟ » ، وأن « فيثاغورس وضع قواعد للتغذية كما حرص أفلاطون على تحريم الخمر ؟ » (٤٩) ويخلص لامترى إلى أنه :

حيث أن كل قدرات النفس تعتمد إلى مثل هذا الحد على التنظيم السليم للمخ وكل أجزاء الجسم ... فمن الواضح أن هذه القدرات ليست إلا هذا التنظيم نفسه . وواضح أن النفس آلة مستنيرة ... فالنفس لذلك لفظة جوفاء ، ليس لدى أي إنسان فكرة عنها ، ويجدر أن يستخدمها الإنسان المستنير لتعني فقط ذلك الجزء الذي يفكر فينا (٥٠) .

وفي كتاب « الإنسان نبات » (١٧٤٨) توسع لامترى في « سلسلة الوجود » الكبيرة إلى نظرية للتطور . وفقد بعض ثقته حين حاول تخطي الهوة الواضحة بين اللاعضوى والعضوى ، وفجأة نسي الآلية (المذهب الآلي) وانزلق إلى

المذهب الحيزي : افترض بذورا معينة مكنت المادة من أن تسبب الحياة (٥١) ووجد من السهل عليه بعد ذلك أن يتبع اوكريتس « لا بد أن الأجيال الأولى كانت ناقصة غير تامة ... وما كان يمكن أن يكون الكمال عمل يوم واحد في الطبيعة ، ولا في الفن » (٥٢) . وايضيق الهوة بين الحيوان والإنسان يحاول لامترى ، على النقيض من ديكارث ، أن يبرهن على أن بعض الحيوانات تفكر : -

لننظر إلى القرد والسمور (حيوان ذو فراء ثمين) والفيل وغيرها في تصرفاتها . وواضح أن هذه الأنشطة لا يمكن تأديتها دون ذكاء . ولم ننكر الذكاء على هذه الحيوانات ؟ وإذا وهبهم نفسا فقد ضيعت . ومن ذا الذي لا يرى أن روح الحيوان يجب أن تكون فانية أو باقية ، من أي النوعين نفس الإنسان ؟ (٥٣) .

وليس ثمة فرق كبير بين أبيض إنسان وأذكي حيوان « فالبلهاء » أو المعتوهون حيوانات لها وجوه بشرية . كما أن القرد الذكي إنسان صغير ذو شكل آخر (٥٤) ويستطرد لامترى فيقول في دعابته المألوفة أن كل مملكة الإنسان ليست إلا مركبات من قرود مختلفة ، ووضع البابا نيوتن على رأسها (٥٥) ولم يعد الإنسان يكون قردا إلا عندما اخترع أصواتا معينة لتكون تعبيراً مناسباً عن أفكار بعينها . وأصبح إنسانا بفضل اللغة (٥٦) .

وهل أقر لامترى بوجود إله « محرك أول » لآلة العالم ؟ وكأن فولتير وديدور قد دافعا عن هذه الحججة من الحاجة إلى وجود نظام للكون . ورفضها لامترى في احتقار :

إن كل تفكير يقوم على العلل أو الأسباب النهائية تفكير طائش . إن الطبيعة تمهد الطريق للسيد البرجوازي ليتحدث نثرا دون أن يعرفه . إن الطبيعة عمياء حين تهب الحياة ، قدر ما هي بريئة حين تدمرها . وكما أنها دون نظر خلقت عينين تبصران ، فإنها كذلك صنعت دون تفكير ، آلة تفكر (٥٧) .

ولم يكن لامترى ملجداً صريحاً . إنه تظاهر بالميل إلى نبد موضوع الإله

على أنه غير هام « فليس يهمننا من أجل راحة البال ، إذا كانت المادة أبدية أو أنها خلقت ، أو أنه يوجد أو لا يوجد إله » .^(٥٨) ولكنه نقل ربما عن صديق وهمي « إن العالم لن يكون سعيداً مطلقاً إلا إذا كان ملحداً » ، فعند ذلك لا تكون ثمة مزيد من خلافات لاهوتية ولا اضطهادات من جانب الكنيسة ولا مزيد من الحروب الدينية ، ويمكن للإنسان أن يعبر عن غرائزه الطبيعية دون شعور بالإثم^(٥٩) وقنع لامترى بالنسبة لشخصه بالمادية (المذهب المادي) واختتم كتابه « الإنسان آلة » بعبارة جريئة متحدية : « هذا هو منهجي - بل هو الحق ، إلا إذا كنت قد ضللت كثيراً . إنه موجز بسيط . ناقشوه الآن إذا أردتم » .^(٦٠) ويحتمل أنه من قبيل الدعاية أهدى لامترى بيانه « اللاأدرى » (الغنوصي) إلى الشاعر المتدين الورع والعالم الفسيولوجي البرخت فون هولر الذي رفض الإهداء فزعا جزوعا في خطاب إلى « صحيفة العلماء » عدد مايو ١٧٤٩ .

إن المؤلف المجهول لكتاب « الإنسان آلة » أهدى إلى كتابه الخطير بقدر ما هو شاذ غير مألوف ، وإني لأشعر بأني مدين بالفضل لله وللدين ولنفسى ، إذ أدلى بهذا التصريح ... إني أعلن هنا أن الكتاب الذي نحن بصددده لا يلتئم مع مشاعري ، وأعتبر أن في إهدائه إلى شخصي إساءة بالغة تفوق في قساوتها كل إساءة وجهها المؤلف المجهول إلى كثير من أفاضل الناس . وأرجو أن يتأكد الجمهور أنني لا علاقة لي بهذا المؤلف ... وأني لا أعرفه ... وأنه يجدر بي أن أعتبر أي توافق بيننا في الآراء أعظم كارثة محققة يمكن أن تنزل بي^(٦١) .

واستمر لامترى يطبع الإهداء في الطبقات اللاحقة من هذا الكتاب . وتناول الناس « الإنسان آلة » بالنقد والتحريض على نطاق واسع ، واجمعوا على دحضه وتفنيده . وكان من اليسير نقد الأسلوب المضطرب في هذا المجلد الصغير وشجب الثقة بالنفس وتبيان مواضع مجانبة الحقيقة . ولم يكن واضحا على الإطلاق أن النفس والجسم يغلبهما النعاس معاً^(٦٢) وبعض الكتاب أكثر إشراقاً في أحلامهم وأوهامهم منهم في كتاباتهم . وقد

يستقر جسم مريض في ذهن سليم مثل بوب وسكارون ، ولن يسلم محبو اللحوم النادرة أنهم لا يزالون في مرحلة الصيد . إن لامترى نفسه الذي كان كثير المزاح نشر نقدا مزعوما لكتابه ، في رسالة غفل من اسم المؤلف تحت عنوان « الإنسان أكثر من آلة » - وربما كان هذا وسيلة لجذب الأنظار إلى كتابه الأول .

ومن ناحية أخرى ربما كان لامترى متأثرا حقا بالحجج التي تساق ضد المذهب الآلي ، ونحن نعلم أنه كان مهتما بشرح ترمبلي (١٧٤٤) للقوى التجديدية في الماء العذب لبيض الحيوانات المائية البسيطة ، مما لم يتفق بسهولة مع النظرية الآلية . وكان جورج سقتال الذي اشتهر برأيه في وجود نارية في الأجسام ، قد قلب في جرأة (١٧١٧) الفرضية الفسيولوجية ، ذلك أنه بدلا من القول بأن الجسم هو الذي يحدد أفكار النفس واختياراتها ، فإن النفس - وهي العنصر المتأصل النشط - هي التي تتحكم في نمو الأعضاء وعملها . وكان تيوفيل دي بوردو - طبيب دالمير - يعتقد أن العمليات الفسيولوجية ، حتى أبسط الهضم غير قابلة لتفسيرات آلية أو كيميائية بحجة (٦٣) وعرض جان بابتست روبينيه حيوية كونية وهبت كل المادة الحياة والحساسية . وكان واضحا أن لامترى يود أن يرتضى هذا الحل لمشكلة المادة بازاء الحياة .

وفي الوقت عينه انتقل لامترى ليستنتج مذهبها قائما على اللذة من فلسفته المادية . وفي كتب ثلاثة مستقلة - بحث في السعادة ، واللذة ، وفن الاستمتاع - أعلن أن حب الذات هو أسهى الفضائل ، وأن اللذة الحسية هي أعظم الخير ، وكره تحقير اللاهوتين للملذات الحياة ، ونازع في سمو المتعة العقلية المزعومة ورأى أن كل الملذات حسية حقا . ومن ثم فإن البسطاء من الناس الذين لا يهتمون بالحياة الفكرية أسعد حالا من الفلاسفة ، ويقول لامترى : لا يندمن أى إنسان على انغماسه في الملذات الحسية ما دامت لا تنطوى على أى ضرر للغير ، ولا يجوز أن يعتبر أى إنسان مسئولاً مسئولية خلقية عن جرائمه لأنها نتاج الوراثة والبيئة اللتين لا سلطان له عليهما ، وينبغي ألا

يعالجه بالعظاا بل بالدواء . ونخزم نخمى المآمع ، بل وبشفقه اعرف بمآمية كونية . ومن المرغوب فيه أن نأار لمنصب القضاء أمهر الأاطاء (٢٤) .

وكانا هذه الآراء من علائم إنآصار أبيقور (وقا أسى فهمه) على زينون فى فرنسا القرن الثامن عشر : واستسلما الفللفة الرواقية فى العها الزاهر للويس الرابع عشر ، لافاع الأبيقورية عن مذهب اللذة فى عصر الإسآنارة ، واشمولية المادة وإطراح الألهة . فلا عجب أن يشآ الإقبال على كآب لاآرى من جمهور آآرر من أوهام اللاهوا وأرهقه الشكليات الآقليدية والقيود الآلقية . ومهما يكن من أمر فإن المآمع المهذب نفر من لاآرى باعآباره مفكرا نآارآا على آماعته كشف عن كثير من معآقات الطبقة العليا ، وهو عاجز عن ضبط النفس ، وهآجمه رجال الدين مبعوآا من عنآ الشيطان . واستآح رجال اللاهوا فى ليدن الآكومة الهولنآية لإبعاهه عن البلاد . وفى فبراير ١٧٤٨ آعاه المفكر الآر فرآريك الأكبر للآضور إلى بروسيا ومنحه رآبا . وضمه إلى أكآلمية العلوم فى برلين ، واستأنف لاآرى ممارسته مهنة الطب وكتب عن الربو وعن الؤسآناريا أآاآا اعآبرها الملك آحسن ما كتب من نوعها . وبعد أن اصآطدم فولآير بلاآرى فى آاشية فرآريك ، كتب إلى مدام آنيس فى ٦ نوفمبر ١٧٥٠ يقول :

هنا رجل مرآ آآاً ، هو لاآرى ، وأفكاره عبارة عن ألعاب نارية ، على شكل صواربخ من السماء آآماً . وآثرآره مسلية لبضع آقائق ، ولكنها مزعآة بعد ذلك إلى آآ مؤلم . إنه ألف آون أن يآرى كتابا رآباً ، آآب فيه على آآريم الفضية والآنم وامتآاح الآذائل ، وآآرض فيه قرآاه على الآياة الآآلفة والمنافية للأآلاق والآشمة - آون قصد سى منه . وفى كتابه هذا ألف من اللمسآ المشرقة ، ولكن فيه نصف صفحة من العقل . إنها أشبه بومضآا يرق فى الليل . اللهم آل ببنى وبين آآآاه طيبيا لى ، إنه قا يعطبنى عقاوا مزعآا يآلا من الراوآا بكل براعة . آم يشرع فى الفضحك والسآورية . وهذا الطيب العآيب هو قارىء الملك .

وأحسن ما فى الموضوع أنه يقرأ له كتاب « تاريخ الكنيسة » إنه يقرأ
مئات من الصفحات من الكتاب ، وهناك مواضع يكاد يَخْتَنق فيها
الملك والقارىء من الضحك (٦٥) .

وكان لامترى قد وصف الموت بأنه خاتمة مسرحية هزلية ساخرة تمثل .
وفى ١١ نوفمبر ١٧٥١ ، وهو فى الثانية والأربعين قدم نفسه مثالا لهذه
المسرحية . فى مأدبة عشاء أقامها له مريض عاجله من داء عضال ، فأتخم
بفطيرة من لحم الطير ، فانتابته حمى شديدة وقضى نحبه . وهنا قتل المرص
طبيبه (٦٦) . وكتب الملك بهذه المناسبة رثاء جميلا . وتنفس فولتير الصعداء .
وانتقلت أفكار الرجل المتوفى إلى ديدرو ودى هولباخ ، ودخلت إلى روح
العصر .

